رسالة سيراليون

كنتُ هناك، على الحدود بين ليبيريا وسيراليون، أحمل أكياس الأرز، وأتلمّس وجوهًا فقدت الاندهاش من الجوع. لم تكن الحرب قد بلغت بعد ذروتها في سيراليون، لكن رائحتها كانت في الهواء، تشبه الدخان الذي يسبق الحريق. كنتُ اشتم واسمع وأرى أن ما أُشعِل في ليبيريا لن يبقى هناك، ولكن هل من ملب للدعاء... من الأرض أو السماء؟

كانت الأيدي التي امتدّت لأخذ المساعدات من اللاجئين الليبيريين على الحدود، تحمل قصصًا ليست غريبة على هذه الأرض. فالفساد نفسه، وشركات التعدين نفسها، والشعارات نفسها، كلها كانت تنخر في قلب سيراليون، تنتظر فقط لحظة الانفجار.

ما كنت أراه ليس سوى مشهدٍ أول من عرضٍ أعيد تمثيله لاحقًا على خشبة البلاد المجاورة، كل مرة بدماء جديدة.

فكيف نكتب إلى الله — أو إلى من بيده أمر البشر — عن حربٍ عرفنا مقدماتها وسكتنا، عن وطنٍ احترق لأن العالم اختار أن لا يراه؟

وكنّا حين تُعقد المؤتمرات والمحافل في العاصمة، نُمنح مكانًا في الزاوية، نستمع دون أن يُسمح لنا بالكلام. فإذا نطقنا، كان يُقال: هذا وقت البروتوكول. وإذا سمحوا لنا — من باب التنفيس — بكلمة، وقع الكلام في الطريق، لا يُلتفت إليه ولا يُحمل عليه.

فمن ذا الذي يسمع من لا يملك سوى الشهادة؟ ومن ذا الذي يصغي للعارف حين يكون الصمت أكثر قبولًا من الحقيقة؟

كان يمكن لنا أن نصرخ. أن نقول: إننا نرى. أن نكتب تقريرًا، نرفع مذكرة، نطلب تحقيقًا، ننبّه. لكننا — أو على الأقل بعضنا — لم نكن نعرف كيف نصرخ. لم نملك سوى ذهول الشباب، وخوف العزلة، وشعور بأن الكلمات تُهدر في الهواء.

اكتفينا بالنجاة، أو لعلنا لم نجد سبيلاً سواها. كنا شهودًا — نعم — لكن شهادتنا لم تكن تُسمع، ولا نحن كنا نعرف كيف نُسمِعها. كان في القلب كلامٌ، وفي اليد رجفةٌ، وفي الحنجرة غصّة لا تُترجم إلى خطاب.

الندم؟ لا يُجدي الآن.

لستُ أطلب محاكمة من صمت، ولا تبريرًا لمن تواطأ. لكني أتساءل: كم حربًا يلزمنا لنفهم أن جذور الفتنة لا تنبت فجأة؟ وأن الحقد لا يُورق من فراغ؟

ألم يكن يكفي أن نرى العظام تلمع تحت جلود الأطفال، كي ندرك أن شيئًا أعمق من الجوع يدبُّ في الأرض؟

هل نحن أبرياء لأننا لم نقتل؟ أم مذنبون لأننا لم نمنع؟

كنتُ أتمنى لو أنني أستطيع خلع هذا الصمت كما يُخلع الثوب، وأن أقول ما ينبغي أن يُقال حين كان في الوقت متّسع. لكن ما زال هناك متّسع لشيء واحد: أن نستدعي الضمير من منفاه.

أيّها الضمير — إن كنت لا تزال حيًّا — عُد ولو متعبًا، عُد ولو مذنبًا، عُد ولو متأخراً.

عدْ ليس لتدين، بل لتبصر. ليس لتُدان، بل لكي تتذكّر.

تذكّر أن الإنسان ليس بقوّته فقط، بل بخوفه مما يصنع، بخجله من الخراب، بخوفه على وجه أمه من الغبار.

تذكّر أن السُكوت لم يكن حيادًا، بل مشاركة باردة. وأن السكينة لا تأتي بعد الحرب، بل بعد أن تُقال الحقيقة.

عدْ — فالبلاد التي ذاقت النار، لا تطفئها إلا يدٌ تعرف ألم الاحتراق.

أكنتَ هناك؟

أما رأيتهم يركضون حفاةً، يشربون من بركٍ تعافها الدواب؟

ألم تمرّ بجانب الأشجار التي اختنقت من الدخان؟

إن كنتَ قد رأيت... فحدّثني، كيف استطعت أن تنام؟

وإن لم تكن، فها أنا أُخبرك.

ليس لتبكي، بل لتتذكّر حين تميل الدنيا من حولك، أن ثمّة بلادًا احترقت، لا لأنها كانت أضعف، بل لأننا جميعًا كنّا نُدير وجوهنا إلى جهةٍ أخرى.